حاجي بابا إصفهاني

للكاتب الانجليزي "جيمس موريه"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الخامس والأربعون

قصة عجيبة

ما كدت أنجو من طلعة الناظر كشى حتى سمعت صوت صاحبي الدرويش الذى أقبل فى هذه الساعة إلى المدينة معلناً قدومه بأداء الشهادتين بأعلى صوته وبعد قليل رأيته يدخل المدفن باحثاً عنى . ولما رآنى ابتهج وحمد الله على وصولى إلى هذا المكان سالماً قبل أن يصل إليه الناظر كشى ووعدنى بأن يقيم معى مدة قصيرة . ووقع اختيارى وإياه على خلوة من الغرف الكثيرة المبنية حول القبر وكان معى عشرون طوماناً من الذهب وبعض النقود الفضية ، وأرسلته ليشترى لى بعض الحاجات الضرورية كحصير لأرض هذه الغرفة وزير يحفظ فيه الماء .

وقد فاجأنى هذا الدرويش مفاجأة لم أكن أنتظرها إذ سألنى : « أخبرنى أولا قبل أن أقيم معك هل تقيم الصلاة وهل تصوم ، أم أنت لا تزال كما كنت فى مشهد ؟ »

قلت : « لماذا تسألنى هذا السؤال وماذا يعنيك إن كنت أصلى أو لا أصلى؟ »

قال : « إن ذلك لا يهمنى كثيراً ولكنه يهمك أنت لأن هذه المدينة « مدينة قم » من أكثر المدن تمسكا بالدين فلا تجد فيها إلا تقياً من أبناء النبى يقضى أيامه ولياليه عاملاً لآخرته . وأكثر من فيها من الناس مصابون بالهزال من قيام الليل والزهد فى الطعام ؛ وقلما وجدت فيها رجلا ضاحك السن أو مبتسم العين أو مورد الخدين . ومن أجل ذلك يجب عليك أن تظهر الحزن والاكتئاب لتبدو عليك هيئة الصالح الورع »

قلت : « وأية فائدة ياصاحبي الدرويش من كل هذا ؟ إننى مسلم ويجب على أداء الفروض ولكن إقامتى فى هذا المكان لا تستلزم كل ما تقول لأنه قلما رآنى أحد فيه أو اهتم بوجودى إنسان »

فقال : « إذا أنت لم تتبع ما قلته لك فلتستعد للرجم بالطوب أو الموت جوعاً ، فالدراويش الذين حولك لا يعرفون الوسط من الأمور ولا يتسامحون فى أقل شىء ، فاذا ارتابوا فى مسلكك أقل ريبة فانهم لا يتأخرون طرفة عين عن جعلك عبرة لغيرك؛ وإذا بدا لهم أن عصيانك ناشىء عن ضعف فى الاعتقاد فلا تنتظر منهم شيئاً غير أن يمزقوا جلدك كل ممزق. واعلك لا تعرف يا حاجى بابا أن هذه مدينة ميرزا أبى القاسم أكبر الأحياء من زعماء الدين ، ولعلك لا تعرف أن هذا الرجل إن ثار ثارت معه مئات الألوف من أتباعه الذين لا يسألونه برهاناً على ما يقول فهو أقوى من الشاه وأكثر نفوذاً

هذا هو الرجل ولكنه طيب القلب كريم الأخلاق ولا أعرف فيه عيباً سوى أنه يقتل رجماً كل من يعتقد أنه ضعيف الايمان »

لما سمعت ذلك من الدرويش وعدته أن أؤدى فروض الدين . وكنت أعد المثابرة على هذه الفروض

من أكبر المشقات . ولكن لما مضت أيام قليلة اعتدتها فلم أعد أرى فيها شيئاً من الصعوبة فلم أهمل أداءها فى أوقاتها . وكنت أرفع صوتى حتى يسمعه كل مقبل من بعيد لزيارة المقبرة . وما كان أكثر الزائرين لها من مختلف الطبقات !

ولقد حذقت صناعة التكليح فصرت أجمل وجهى كأوجه الأتقياء والمتزهدين عبوساً وتقطيباً . وقد شهد لى صاحبى الدرويش بالحذق فى ذلك على أنه هو معدوم النظير فى ذلك

ولقد أذيع سريعاً أن فى المدفن ولياً من أولياء الله . ولولا أنه هارب من مظلمة ولاجئ إلى هذا القبر لكان إماماً للناس . وأذيع عنى أننى مظلوم مضطهد وأن مقامى فى هذا اللجأ لايدل إلا على ظلم الحكام الذين يخصون الأتقياء المتزهدين باضطهادهم

وتعرفت فى أقرب وقت على أكثر أهل المدينة وقد اتفقت كلمتهم على أنه ليس فى المدينة أكثر تعبداً منى . ولما طال العهد صار بعضهم يستشيرنى فى أموره فأشير عليه . ودلتهم التجارب على أننى حكيم أصيل الرأى

ولم تكن معيشتى وصاحبى تكلف أحدنا شيئاً من المال لأن الزائرين وخصوصاً النساء منهم كانوا يقدمون إلينا ما نحن فى حاجة إليه من خبز وفاكهة وعسل ، وكنت أجزى على ذلك بالشكر وبأحجبة أكتبها بيدى فى بعض الأحايين ، وعلى الرغم من قلة التكاليف التى تكبدنا إياها هذه الحياة فانها حياة مظلمة لاضطرارنا فى أكثر الأحيان إلى قضاء الساعات الطوال دون أن تتحرك شفتا أحدنا بحرف ، ومن أجل ذلك كنت أشجعه على أن يقص علىّ أخباره ويروى لى قصصه . ومن بينها القصة التى لم أكن مصغياً إليه وهو يرويها فى الخان . ولقد سررت من هذه القصة كثيراً وأحسب القارئ سيسر منها كذلك ، وسواء صدق ظنى أو لم يصدق فلا شك أن القارئ يود أن يعرف بماذا كان يتسلى الدراويش فى سجونهم المختارة

القصة

السلطان التركى الحاضر ملقب بين الايرانيين بلقب « خون خور » أى شارب الدماء ، والايرانيون فى العادة يطلقون هذا اللقب على كل حاكم تركى . ولما تولى هذا السلطان أصر على إلغاء كثير من العادات والتقاليد التى نشرها الكفار الذين تطرقوا إلى الوظائف فى عهد سلفه ، ورأى أن من واجبه إعادة الأمور إلى حالة البساطة التى كانت عليها قبل ذلك السلف ، فسن للحكومة نظاماً تركياً بحتاً

وكان فى جملة التقاليد القديمة التى أحياها سنة التنكر والتجسس على الرعايا . وكان شديد الحرص على أن يكون تنكره متقناً وعلى أن يخفى سره عن أخص أتباعه ، وكانت الثورة تكاد أن تنشب فى ذلك الوقت لكثرة ما كانت تبديه الجماهير من التذمر ، فأراد السلطان أن يتعرف بنفسه حالة الجماهير وأمر بصنع ثياب له يستحيل أن يعرف وهو مرتديها .

وكان من عاداته أن يكلف بصنعها خياطين مختلفين فى بلاد مختلفة وفى أوقات متخالفة . وفى الوقت نفسه أرسل خصيه الأمين واسمه المنصوري ليبحث له عن خياط غير مشهور

فذهب المنصوري إلى السوق ورأى خياطاً فى حانوت ضيق يضع على عينيه منظاراً وليس فى حانوته ثياب كثيرة ، فقال المنصورى : « هذا هو بغيتى لأنه بغير شك ليس من المشهورين »

حياه المنصورى فرفع بصره إليه، ولما رآه فى ثياب جميلة عاد إلى عمله فى صمت دون أن يرد التحية لأنه اعتقد أنها غير موجهة إليه ، ولكن لما أعاد الخصى التحية أيقن الرجل أنه هو المعنى بها فطرح أعماله جانباً وهمّ بأن يقف على قدميه ولكن المنصورى أمره بالجلوس وسأله عن اسمه فقال : « اسمى خادمك عبد الله وشهرتى بابا دول »

قال المنصورى : « وهل أنت خياط ؟ »

فقال : « نعم صناعتى خياط ومؤذن فى المسجد الصغير بسوق السمك »

قال : « اسمع يا بابا دول — إن لدىّ صفقة كبيرة الأهمية فهل تقبلها ؟ »

فقال الخياط : « وهل أنا مجنون حتى أرفضها؟ قل لى ما هى »

— « تكلم بهدوء وفكر فيما أقوله لك . هل تقبل أن أربط عصابة على عينيك وآخذك إلى مكان لا تعرفه لتؤدي عملاً تأخذ عليه أجراً كبيراً ؟ »

— هذا شىء آخر غير الذى عرضته علىّ أولا. إن الأوقات شديدة الحرج والرؤوس تتطاير الآن عن أجسادها بغير حساب ولا يبعد أن يقطع رأس خياط مثلى كما تقطع رؤوس الوزراء والباشوات فى هذا الزمن . ولكن ادفع لى مقدماً ثمناً عالياً وأنا أخيط لك ثوباً يصلح لابليس فلا يعرفه فيه أحد إن تنكر »

قال المنصوري : « هذه هى بغيتى ، وهذا هو المال » ووضع فى يده كيساً من النقود الذهبية فأخذه وقال : « لقد قبلت فقل لى ماذا تريده واعتمد على » ثم تم الاتفاق بينهما على أن يأتى الخصى فى منتصف الليل فيأخذه بعد أن يربط عينيه حيث يشاء

ولما ذهب الخصى عاد الخياط إلى عمله وأخذ يفكر فى هذه الصفقة ثم قام فجأة فأغلق حانوته وذهب إلى منزله ليخبر زوجته

وكانت هذه الزوجة واسمها «دلفريب» محدودبة الظهر مثله ، وقد دهشت عندما رأته يعود إلى المنزل قبل موعده المادى ومعه طبق من الشواء الساخن يتصاعد منه الدخان وآخر من السكباج وقرطاس من العنب

أكلا وشربا القهوة وأخبرها بالحديث وترك لها ما أخذه من المال . ولما كاد الليل ينتصف ذهب إلى حانوته ليقابل المنصورى وسمح له بأن يعصب عينيه ويقوده حتى وصلا إلى باب الحرم فى قصر السلطان فدخلا . ولم يزل الخصى يقود الخياط حتى وصل به إلى حجرة السلطان ولم يكن بها من النور غير مصباح ضئيل على الرف ، ولكن أثاثها الفاخر كان ينم عليها

أمر الخياط بالجلوس على كرسى ذهبى فوق سجادة لم ير ولم يتخيل مثلها، ثم جىء له بثوب من ثياب الدراويش وطلب إليه أن يتأمل فيه ويقول فى كم من الزمن يستطيع أن يخيط ثوباً مثله. وتركه الخصى آمراً إياه بأن يطوى الثوب كما كان بعد أن ينتهى من فحصه ويضعه فى المنديل الذى كان فيه

وبعد أن قام الخياط بذلك الفحص ناظراً فى كل جزء من الثوب طواه ووضعه فى المنديل . ولم يكد يفعل ذلك حتى دخل الغرفة رجل مهيب الطلعة فأخذ المنديل وخرج دون أن ينطق بحرف تاركاً الخياط وحده وقد ساورته الأفكار من هذه المناظر التى يراها . ثم فتح باب آخر من هذه الحجرة فدخل رجل فى ثياب ثمينة ومعه ثوب مطوى

فى (شال) من الكشمير وحياهذا الرجل الخياط تحية العبد الخاشع للسيد المهيب ثم قبل الأرض بين يديه وترك الثوب وذهب

فقال الخياط فى نفسه : « لا شك فى أن صاحب المنزل من أكبر الباشوات ولمله صدر أعظم ، ولو كنت أقدر الرهبة التى أشعر بها الآن لما قبلت هذه الصفقة مهما كان ربحي منها . ومن الذى يدرى نتيجة وجودى فى هذا المكان بين العظماء الذين يظهر أنهم خرس لأنهم يذهبون ويأتون ولا ينطق أحدهم بحرف . لقد كنت أرجو أن يقل انحناؤهم أمامي ويكثر كلامهم لى . لقد سمعت أن امرأة ألقيت فى البحر منذ أيام . ومن يدرى لعلها كانت خياطة بمثل هذا المنزل ولعل نصيبى سيكون مثل نصيبها

لما وصل الخياط فى مناجاته نفسه إلى هذا الحد دخل الحجرة المنصورى فأخذ الثوب الثانى الذى كان الخياط قد انتهى من خصه وعصب عينيه ، وعادا من نفس الطريق الذى جاء به منه بعد أن أعطاه سلة مغلقة . وكان الخياط رجلا حنكته التجارب فلم يسأل سؤالا ولم يستفسر عن شيء . ولما طلب إليه الخصى أن يحدد موعداً يفرغ فيه من خياطة الثوبين وعده بانجازهما بعد ثلاثة أيام ، فقبل الخصى وأعطاه عشرة جنيهات

ولما رفع الرباط عن عينيه أمام حانوته وفارق المنصورى حمد الله وذهب مسرعاً إلى منزله ليبشر زوجته التى كانت منتظرة بصبر نافد بأن الصفقة تستحق أن تسمى صفقة رابحة . وكان وصوله إلى منزله بعد ساعتين من منتصف الليل فهنأته لعودته سالماً وقالت إنها استطالت مدة غيابه وتلقت بشراه بالابتسام وبتكرار الحمد لله . وطلبت إليه أن يصف ما رآه وأن يخبرها عما فى السلة

فقال دعينا الآن من ذكر ذلك ولنذهب لكى ننام

قالت : « كلا بل أخبرنى أولا ماذا رأيت وإلا فانى لن أستطيع النوم »

وأخذت السلة ففتحتها وهى تأمل أن تجد فيها هدية ثمينة من بيت العظيم الذى تعاقد معه على هذه الصفقة ولكن ما كان أشد انزعاجها وهلعها هى والزوج المسكين عند ماوجدا فى السلة رأساً مقطوعاً

قالت الزوجة : « ما هذه الداهية التى حلت فوق رؤوسنا؟ هل أتيت برأس قتيل لتصنع منه ثوباً؟ »

فصاح المسكين : « لعنة الله على أمه وعلى أبيه . لقد خدعنى هذا الخصى اللعين ! ليتنى ظاوعت قلبي فقد حدثنى بالشر لما كلمنى الخصى عن ربط عيني وعن المكان المجهول . ولست أعرف الطريق إلى المنزل الذى قادني إليه . وإلا لذهبت إليه فى الحال وأعدت رأس القتيل . إنني لست أعرف ماذا أفعل أو ماذا أقول وأخشى أن يكون عندنا بعد لحظة مائة من الشرطة فنكلف بدفع الدية أو تعلق لنا المشنقة أو نرمى فى البحر . أشيرى على يا دلفريب . أشيرى على يا عزيزتى ! »

قالت الزوجة : « علينا أن نتخلص من هذا الرأس قبل كل شئ ولسنا أحق بهذه التهمة من غيرنا فلنبحث عن أي إنسان يحملها عنا »

فقال الزوج : « ولكن الفجر قد اقترب وإن تأخرنا قليلا يفوت الوقت الذى نستطيع أن نعمل فيه أى عمل فلننتظر فى أمرنا الآن »

قالت الزوجة : « لقد خطر لى خاطر فى هذه اللحظة ، إن جارنا حسن الخباز يوقد فرنه الآن وبعد ساعة يبتدئ فى إنضاج الخبز وإنضاج ما لديه من

الأطعمة الكثيرة الموضوعة فى الأوانى المتشابهة .
وإذا وضعنا هذا الرأس فى « حلة » وأرسلناها إليه فانه سيشويها فى الآنية كالعادة ويتركها بين مثيلاتها من الأوانى حتى يأتى من يسأل عنها وليس يعرف أحد لمن كل آنية من هذه الأوانى لأن صاحب كل آنية يأتى كالعادة فيستدل عليها »

فأعجب الزوج برأى زوجته ونفذ ما أشارت به وبعد دقائق كان الرأس فى « حلة » مغطاة بين سائر « الحلل » الموضوعة أمام باب الموقد وأغلق الزوجان عليهما باب المنزل وناما

وكانت الزوجة مسرورة بامتلاكها للشال الكشمير الذى كان رأس القتيل ملفوفاً به فى داخل السلة

وكان حسن الخباز وابنه محمود يشعلان النار فى الموقد بسرعة، وبالرغم من أنهما كانا فى هذا العمل فان محموداً وقف فجأة ونبه أباه إلى عواء غريب لكلب بالقرب من الموقد وقال له إن هذا العواء يدل على حدوث أمر غير عادى »

فقال الخباز : « لا شئ من ذلك يا محمود فدعنا نستمر على عملنا »

لكن النباح لم ينقطع ودخل الكلب فأخذ يشم الاناء الذى جاء به الخياط ثم يثب على الخباز ويعود إلى شم الاناء ، فارتاب الخباز ورفع الغطاء عن هذا الاناء برفق . ولست فى حاجة إلى أن أصف مقدار الرعب الذى اعتراه عند ما رأى فيه رأس إنسان يحملق إليه بعينيه ولكن الرجل كان قوى الأعصاب فلم يتركه يسقط من يده كما كان كثير الناس فى مثل هذه الحالة بل وضعه كما كان ونادى ابنه وقال : « إن الدنيا سيئة يا محمود وفيها كثيرون سيئون . لقد أرسل إلينا بعض الكفار رأس إنسان لنشويه ولكن بحمد الله لم نقع فى هذه الخطيئة ولا نزال نستطيع العمل فى هذا الفرن ونحن مرتاحو الضمير . ولكن إذا عرف أنه كان عندنا رأس لنشويه فمن الذى يرسل إلينا خبزه بعد ذلك ؟ إننى أخشى إن يشتهر هذا الخبر فنموت جوعاً لأن الناس سيقولون إننا نعودنا طبخ الرؤوس الآدمية؛ وإذا اتفق أن وجد فى رغيف شعرة فانهم سيقولون إنها من لحية إنسان »

وكان محمود شاباً يبلغ العشرين من العمر وقد أخذ عن أبيه الهدوء وسلامة الأعصاب وزاد عنه أنه كان ذكياً ميالا للفكاهة ؛ وبدلا من أن ينزعج من هذا الحادث عده فكاهة عظيمة وضحك ضحكة عالية من الأسنان البارزة والعينين المحملقتين فى الرأس الموضوع فى « الحلة » وقال : « تعال نخبأ هذا الرأس فى حانوت « خير على » الحلاق الذى أمامنا عند ما يفتحه الآن . إننى أستطيع أن أفعل ذلك دون أن يرانى أى إنسان فأذن لى بذلك قبل أن ينتشر النور »

وافقه الأب فسار بخفة الطائر ووضع الرأس على كرسى الحلاقة كأنه رأس أحد « الزبائن » وعاد ابن الخباز إلى مخبزه لينظر ماذا يفعل الحلاق الضعيف البصر بهذا الرأس عند ما يراه

وكان « خير على » فى ذلك الوقت يكنس الطريق فلما عاد إلى حانوته الضيق المظلم أخذ يدور فيه لمسح المرآة والكراسى فوقع نظره فجأة على هذا الرأس وظن أن أحد زبائنه جاء ليحلق فقال : « السلام عليكم يا أخى لا تؤاخذنى لأنى لم أرك ساعة حضرت وقد جئت مبكراً جداً ومع ذلك فأرى رأسك

محلوقاً وأراك قد نزعت عمامتك قبل أن آتى، ألا تخاف أن تصاب بالبرد ؟»

ثم سكت لحظة وعاد فقال : « يظهر أن صاحبنا أصم فانه لم يجبنى بحرف ومع أننى نصف أعمى فانى سأحلق له »

ثم أخذ طسته النحاسى وأعد الصابون والموسى ومشى نحو الرأس والطست في يد والموسى فى اليد الأخرى ، ولم يكد يضع يده على ذلك الرأس البارد حتى عاد بحركة عصبية كأنما لمست يداه النار وقال : « ما شأنك يا أخى ؟ إن جسمك بارد كأنه قطعة من الثلج »

ولكنه لما مسه للمرة الثانية سقط الرأس على الأرض فوثب الحلاق المسكين صائحاً : « أمان ! أمان ! إذا كنت أنت الشيطان فخذ حانوتى وما فيه ودع لى حياتى وأعفنى من الحلاقة لك »

ولكن مضت لحظات لم يحدث فيها حادث فاعتقد أن الشيطان لا يد له فى هذا الأمر . ودنا من الرأس فرفعه من شعره وقال : « ما الذى جاء بك إلى هذا المكان ؟ هل تريد أن تفضحني ؟ إنني نصف أعمى ، ولكننى أعرف ما ينبغى علىّ أن أفعله إننى سأذهب بك إلى حيث لا تضرين أحداً فجارى اليونانى «بنى الكبابجى» يفرح بك ليصنع منك « كباباً » لزبائنه الكفار »

ثم أخذ الرأس مغطى بمنديل فى يد والغليون فى اليد الأخرى ومشى إلى مطعم جاره اليونانى ووضعه فى ركن منه دون أن يراه أحد لأن الصباح كان لا يزال فى أوائله وأصحاب الحوانيت لا يزالون يستعدون ولما يبدأوا أعمالهم

ثم أشعل غليونه من موقد بنى وجعل ذلك علة لزيارة حانوته إذا ما رآه أحد ولعله خشى ألا يكون هذا السبب كافياً فناداه وأمره بأن يرسل إليه طبقاً من الشواء ليفطر به

وبعد أن أوقد بنى النار وجد وهو يكنس الحانوت ذلك الرأس وكان بنى يونانياً أصيلا كثير المكر قوى الحذر عليما بضروب الخداع والخائنة يتملق من هم أعلى منه ويظلم من هم دونه . وكان يكره المثمانيين كراهية المقت ولكنه مع ذلك يتملق أصغرهم قدراً وأضألهم منزلة

ولما أمسك بذلك الرأس بين يديه عرف أنه رأس رجل مسلم فقال : « ليتنى أجد كل رؤوس المسلمين مثل هذه الرأس فأصنع منها أحسن شواء فى الوجود . ليته لا يبقى فى الآستانة رجل على قيد الحياة . وليت النسور تتغذى بأجسامهم وليت كل يونانى يصادفه من حسن الحظ مثل الذى صادفنى اليوم »

ثم ألقى بالرأس وركله برجله ولكنه عاد فتذكر ورفعه فى الحال وقال : « لو وجد هذا الرأس هنا لوقعت النكبة على رأسى لأن كل الناس لن يعتقدوا إلا أننى قتلت تركياً » ووقف مدة طويلة عالج فيها أشد ضرب من الحيرة وقال فى نفسه : « لقد تذكرت ! إن الحى اليهودى خير مكان لهذا الرأس فان اليهود هم الذين يعرفون وحدهم ما الذى ينبغى عمله بهذه الرؤوس »

ثم وضع الرأس تحت ثوبه ومشى إلى الحى اليهودى فوجد على بابه جسم رجل يهودى مقطوعاً رأسه وموضوعاً بين رجليه وقد جرت العادة في تركيا عند ما يقطع رأس رجل مسلم أن يوضع الرأس تحت ذراعه تكريماً له . أما اليهود والنصارى فتوضع

رؤوسهم بعد قطعها بين أرجلهم تحقيراً لهم

ولما كان الطريق خالياً فقد أسرع بنى فوضع رأس المسلم تحت ذراع اليهودى وعاد مسرعاً إلى حانوته

أما قصة اليهودى المقتول فانه اتهم باختطاف ولد مسلم وهذه تهمة توجه كثيراً إلى اليهود فى تركيا وفى إيران ، وقد عوقب اليهودى بالقتل وبأن تترك جثته فى الطريق ثلاثة أيام . ولم يجرؤ أحد من اليهود أو اليونان المقيمين بالقرب من هذا الحى على الدنو منها ، فظلوا منتظرين أن يأمر الحاكم المسلم بدفنها أو باحراقها أو بأن يفعل بها ما يشاء . ومن أجل ذلك تمكن بنى من أداء مهمته التى تقدم ذكرها دون أن يراه أحد

ولكن لما اعتلى ضوء النهار شاع أن اليهود قتلوا رجلا مسلماً ووضعوا رأسه مع رأس اليهودى انتقاماً ، وشاعت إشاعات أخرى متناقضة ، وازدحم الناس حول الجثة . وقيل إن الله أظهر معجزة إذ ظهر لليهودي رأسان ، وقيل إنه كان مسلماً فى السر ويهودياً فى العلانية وإنه كان بريئاً من التهمة التى وجهت إليه ولذلك ظهرت هذه المعجزة

ولكن اليهود كانوا فى أشد الحيرة والارتباك لوقوع هذا الحادث ، وكان رؤساؤهم الدينيون يروحون ويغدون أمام هذه الجثة ويعقدون جلسات للبحث فيما يدفع عنهم شر هذه النكبة

وبينما كان الناس يشاهدون هذا المنظر المنكر ويردد كل منهم ما سمعه من الاشاعات إذ صاح أحد الجنود : « هذا الرأس هو رأس قائدنا فلان رحمه الله . فتعرف عليه سائر الجنود وعرفوه ، وهاج غضبهم ، وسرعان ما انصل الخبر بكل جنود الفرقة لأنهم لم يكونوا يعلمون أن قائدهم الذى يحبونه قد مات . وشاعت بينهم إشاعات مختلفة عن سبب ذلك ولكن كلهم جميعاً كانت متفقة على أن هذه الاهانة التى لحقت بهم لا يمحوها غير الدم ، وقيل إن الوزير هو الذى قتله وألقى برأسه فى هذا المكان لتقع الشبهة على الجنود . وقيل إن أحد السفراء الأجانب هو الذى فعل ذلك . وأقسم الجنود برأس عثمان وبسيف عمر أن ينتقموا لأنفسهم من القاتل أياً كان

وقبل أن نصف النتائج نوجه نظر القارئ إلى الحالة التى كان عليها اليهود فى ذلك الوقت وإلى محاولتهم الاختفاء والفرار من غضب الأتراك ، ونوجهه كذلك إلى منظر الجنود التركية وهى تسير مسلحة فى الطرقات مقسمة أغلظ الايمان أن تنتقم باحثة عمن تصب فوق رأسه جام الانتقام . ولكى نتصور هذا المنظر يجب أن نعرف أن المدينة كانت على ازدحامها الشديد ضيقة الطرقات وكان أهلها جميعاً لا يتكلمون فى حديث غير هذا ولا يهتمون بشىء سواه وكلهم يتوقع حدوث نكبة لا تخطر لأحد ببال

فى نفس الليلة التى دعى فيها الخياط إلى قصر السلطان صدر أمر سرى بقتل قائد الفرسان وقد كان ينسب إليه أنه رأس حركة التمرد التى قامت أخيراً بين الجنود

ولما كان السلطان شديد الغيظ من هذا القائد فقد أمر بأن يعرض عليه الرأس ساعة قطعه فجاء به الجلاد إلى الغرفة فى الساعة التى كان فيها الخياط جالساً على الكرسي الذهبي ينتظر الثوب الذى سيخيط مثله ولأن الغرفة لم تكن مضاءة بالنور الكافى ولأن الجلاد وغيره من الحاشية كانوا يخشون من النظر إلى وجه السلطان — فقد وضع الرأس ملفوفاً

تحت قدمى الخياط على اعتبار أنه السلطان . ثم أخطأ الخصى فوضعه فى السلة بدلا من الهدية التى كان يجب تقديمها وقدمت تلك الهدية إلى السلطان بدلا من رأس القائد

لما عرف السلطان أن الهدية هى التى قدمت إليه بدلا من الرأس كان الخصى والخياط فى طريقهما إلى الحانوت

غضب السلطان وانتظر عودة المنصورى فلما عاد أمره بالذهاب فى الحال ليأتى بالرأس الذى أخذه الخياط وتوعده بالموت إذا لم يعد به ، فذهب وهو يكاد يجن لأنه يعرف حانوت الخياط ولكنه لا يعرف منزله . وأخذ يدور فى الطرقات لعله يرى رجلا فيسأله عنه ومضت ساعة قبل أن يتذكر قول الخياط إنه مؤذن فى المسجد الصغير فى سوق السمك

فلما تذكر هذه الكلمة جرى مسرعاً إلى ذلك المسجد وكان قد اقترب وقت الأذان فانتظر وهو مفقود الصبر تحت باب المسجد . ولم يمض وقت طويل حتى رأى رجلا يقبل نحو المسجد فظن أنه الخياط ، وبعد دقائق تبين أنه لم يكن مخطئاً فى ظنه

ولما وقع نظر الخياط على المنصورى ترك الواجب الدينى الذى جاء ليؤديه فى المسجد وهو الأذان وجرى كالمجنون راغباً فى الفرار . ولكن المنصورى أدركه واستوقفه برفق أطمع الخياط فقال : « هل أنت إنسان ؟ كيف تعامل مسكيناً مثلى هذه المعاملة ماالذى أسأتك به حتى تعطينى رأس رجل مقتول ؟ »

قال المنصورى : « تمهل أيها الصديق فانى لم أرد بك سوءاً وإنما وقعت غلطة يراد الآن إصلاحها »

فقال الخياط وهو يرتعش : غلطة ؟ تقول غلطة ؟ أتضحك على ذقن بيضاء مثل ذقنى وتفهمنى أنى آت لأخيط ثوباً ثم تعطينى رأس رجل مقتول ؟ إن البيت الذى قدتنى إليه بيت جماعة من اللصوص السفاكى الدماء »

فوضع الخصى يده على فم الخياط وقال : « اسكت فانك لا تعرف ممن تتكلم »

قال الخياط : « أيا كان هذا الذى تتكلم عنه فانه كلب كافر يستحق اللعنة »

فقال الخصى : « أهكذا تتكلم عن ظل الله على الأرض يا أحمق ؟ قل لى ماذا فعلت برأس القتيل ! هاته وإلا قطعت رأسك بدلا منه »

لما علم الخياط حقيقة الأمر فتح فاه كالأبله وقال : « أمان ! أمان ! لم أكن أعرف هذه الحقيقة تعال معى إلى المنزل فأنت تسعدنى بتشريفه وترفع رأسى إلى السماء »

فقال المنصورى : « لا أستطيع التأخر فالأمر يدعو إلى شدة الاستعجال فقل لى أين رأس قائد الفرسان »

وكان الخياط يسمع هذا اللقب ويذكر ما فعلته زوجته فاصطكت أسنانه واضطربت ركبتاه وقال : « ما أوقعنى فى ذلك غير القسمة وليس للانسان أى مهرب منها »

ثم سكت . وانتظر الخصى كى ينطق بشىء فلما لم يفعل قال الخصى :

— « هل أحرقته ؟ »

— « كلا »

— « هل رميته فى البحر ؟ »

— « كلا »

— « إذن فأستحلفك باسم النبى أن تخبرنى

ماذا فعلت به ؟ هل أكلته ؟ »

— « كلا »

— « هل هو موجود الآن فى منزلك ؟ »

— « كلا »

— « هل هو مخبوء فى بيت آخر ؟

— « كلا »

فاشتد غضب الخصى وأمسك بلحية الخياط وصاح : « إذن فأخبرنى ما الذى فعلت به ؟ »

فقال الخياط وهو يكاد يختنق لاحتباس الدموع فى صدره : « إنه فى الفرن — إن الفران يشويه الآن »

دهش الخصى وقال : يشويه ! لماذا ؟ هل تريد أن تأكله ؟ »

فقال الخياط : « كلا ولقد أخبرتك بالحقيقة فماذا تريد ؟ إنه الآن فى الفرن والفران يشويه » ثم أخبره بالأمر على حقيقته

فقال المنصورى : « أرنى حانوت الخباز . من الذى يظن أن رأس قائد الفرسان يرسل إلى الفرن ليشوي ؟ لا إله إلا الله »

ومشى الرجلان إلى حانوت الخباز وكان إذ ذاك يخرج الخبز ناضجاً من الوقد، ولما علم غرضهما لم يتردد فى إخبارهما بالحقيقة . وذهب الثلاثة (المنصورى والخياط والخباز) إلى حانوت الحلاق فسألوه عما فعل برأس القتيل فتردد مدة ثم أقسم أنه كان يظن الأمر حيلة من إبليس وأن ذلك بر ما فعله من تركها فى مطعم اليونانى الكافر الذى لا بد أن يكون قدمها لاخوانه الكفار فى جملة ما قدمه إليهم من الشواء

فاستعاذ الثلاثة بالله من غضبه وضموا إليهم الحلاق ومشوا إلى مطعم بنى اليونانى

ازعج المسكين عند ما رأى أربعة من المسلمين يدخلون حانوته فى وقت واحد وشعر بأن حاجتهم ليست إلى الطعام بل إلى أمر آخر . ولما سألوه عن رأس القتيل أنكر أنه رآه أو علم شيئاً عنه فأراه الحلاق الركن الذى تركه فيه

وأقسم بالقرآن أنه صادق وتولى المنصورى مهمة التحقيق فى القضية

وفى هذا الحين سمع الخصي ما كان الناس يتحدثون به من وجود رأس ثان لجثة اليهودى القتيل . وسمع من جهة أخرى أن الفرسان هائجون فى المدينة وأن لهذا الهياج علاقة بوجود الرأس الثاني

فذهب مع الخياط والخباز والحلاق إلى المكان الذي فيه جثة اليهودى وهناك وجدوا الجثة التى كانوا يبحثون عنها

وكان بنى اليونانى مستشعراً بما سيصيبه فلم يضيع الوقت سدى بل جمع أمواله وهرب من المدينة

ولما رأى الخصى الرأس قال : « أين اليونانى ؟ يجب أن يكون معنا ولنذهب جميعاً إلى السلطان »

فقال الحلاق : « لا بد أنه هرب لأنه هو الذى منح اليهودى رأسه الثانى »

وكان المنصورى يحمل الرأس ولكنه لما رأى كثرة الجنود حوله ووجدهم يقسمون أن ينتقموا من المسئول أياً كان أحجم عن ذلك وأخذ شهوده معه وذهب إلى السلطان . ولما أخبر المنصورى السلطان بما حدث اضطرب السلطان لأن الحركة التى بدت من الجنود قد يتسع نطاقها فيصبح من المستحيل إخمادها وقد يؤدى ذلك إلى خلعه أو قتله

فظل مدة طويلة فى حالة من الشك وأخذ يفتل شاربيه ويكرر بصوت خافت لفظة : « الله ! » ثم

أمر باستدعاء الصدر الأعظم وشيخ الاسلام وقد انزعج الرجلان عند ما دعيا فى هذه الساعة المبكرة فجاءا وهما يرتجفان ولكن لما أخبرهما السلطان عن سبب استدعائهما عاد إليهما الهدوء والاطمئنان

وبعد أن تداولا مدة قررا أن يحال الخياط والخباز والحلاق إلى المحاكمة بتهمة التآمر على حياة القائد وأخذ رأسه ليشوى ويحلق ويصنع منه شواء وأن يطلب الحكم عليهم بدفع الدية . وأصدر شيخ الاسلام أمراً باهدار دم اليونانى لأنه رابع المتآمرين وقد هرب وهو مسيحى لا تقبل منه الدية عن مسلم

وبعد أن تداول السلطان والصدر الأعظم تقرر أن يعين خلف المقتول من الدين يرضى عنهم الجنود وأن يقام مأتم عظيم للقائد المقتول

وقد دفع السلطان للثلاثة المتهمين الدية سراً فدفعوها وعوضهم تعويضاً حسناً عما تسبب لهم من المتاعب . وتمت الجنازة وتعين خلف للقائد وعاد الهدوء إلى المدينة والجنود . وبذلك نفذ كل ما تم الاتفاق عليه إلا قتل اليونانى فانهم لم يعثروا له على أثر »

* * *

هذه هى القصة التى قصها على الدرويش ولكنى اختصرتها خصوصاً فى الجزء الذى أخذ فيه الخصى يروى على السلطان ما عرفه عن أمر الجثة. ولو سردت هذه القصة كما سمعتها من الدرويش لجاءت طويلة جداً يحتاج تدوينها إلى سفر كامل . وفن القصص يقضى بأن تكون القصة مختصرة بقدر الامكان وإلا تفقد إمتاع القارئ بسبب الايجاز

ومن أجل ذلك قال لى الدرويش إنه يستطيع أن يقص هذه القصة فى شهر دون أن ينتهى منها لأن مادتها تتسع لذلك

الفصل السادس والأربعون

ماهى بابا يصير ولياً من أولياء الله

أخيراً سمع ميرزا أبو القاسم ما تناقله الناس عن صلاحى وتقواى فعزم على مقابلتى عند ما يزور القبر الذى أنا لاجئ إليه .

ولقد كنت خائفاً من هذه الزيارة خوفاً شديداً لأنه سيتضح منها جهلى الشديد . وقلت فى نفسى إن زعيما دينياً مثل أبى القاسم لا بد أن يكون على جانب كبير من العلم ولا بد أن يمتحن فيه رجلاً مثلى ذاعت شهرته ولم تتضح بعد حقيقته

ولم أكن أعرف من أمر دينى سوى أن كل من لا يؤمن بالنبى محمد وبابن عمه على فهو من حطب جهنم ، وأنه لن يدخل الجنة غير المسلمين ، وأن فريقاً كبيراً من المسلمين سيدخلون جهنم أيضاً لأنهم فضلوا أبا بكر وعمر وعثمان على الامام على ، وأن الأتراك جميعاً لن يدخلوا الجنة ولكنهم ليسوا نجسين مثل اليهود والنصارى

وكنت أعلم أيضاً أنه لا يجوز شرب الخمر ولا أكل الخنزير وأنه يجب أن يصلى المرء خمس مرات فى اليوم ويجب أن يتوضأ قبل كل صلاة

ومنذ اللحظة التى سمعت فيها بأن ميرزا أبا القاسم سيزورنى ، أخذت أستعيد فى ذهنى ما تعلمته من أمور الدين شأن الطالب الذى قرب وقت امتحانه

وبينما أنا كذلك إذ أقبل على صاحبى الدرويش وأخبرته عن سبب اشتغالى فنظر إلى وقال : « هل عشت فى الدنيا هذا العمر ولم تعرف إلى الآن أنه لا يمكن أداء أى عمل إلا بالوقاحة ؟ هل نسيت القصص التى كنت أرويها لك مع صاحبى الدرويش صفر فى مشهد ؟ »

قلت له : « إنني لم أنس حرفاً مما قلتموه لأني جلدت في ذلك المهد وليس في الدنيا شيء يقوى الناكرة ويشحذ الذهن مثل عصا الجلاد . ولكنني الآن لست معرضاً لها بل للرجم بالأحجار فقل لي يا درويش ما الذي أفعل ؟ »

فقال : « إذا كنت لا تستطيع أن تتبجح بالعلم وتركن إليه الوقاحة في الجدل فما عليك إلا أن تلزم الصمت فلا تجيب . ومن الذي يستطيع أن يعرف مع صمتك أنك حمار ؟ إنني أكاد أخدع فيك أيضاً إذا أنت لم تتكلم »

قلت : « فليكن ما تشير به يا درويش ... الله كريم »

ثم أطرقت وتذكرت قصة من قصص السعدي ضمنها ذكر ما ينبغي على الدراويش أن يعرفوه فتشجعت وعزمت على اتباع ما أوصى به السعدي في هذه القصة .

ولم تمض إلا مدة وجيزة ثم جاء أبو القاسم ومعه تلاميذه فأقاموا الصلاة في صحن المدفن ولما أحسست بمجيئهم وقفت أصلي في خلوتي ؛ ولما انتهت الصلاة خرجت فرأيته جالساً بين تلاميذه فجلست معهم ورأيتهم ينظرون إليه نظرة تقديس فألزمت نفسي أن أنظر إليه تلك النظرة . وبدأ يلقي درسه ونحن جميعاً منصتون إليه . وفي وسط الدرس دعاني إلى الاقتراب من مجلسه والجلوس على طرف سجادته كالخاصة من المقربين إليه ففعلت بعد أن قبلت طرف ثوبه في خضوع ورهبة فقال لي : « مرحباً بك ؟ لقد سمعنا كثيراً عنك وإن شاء الله بارك في خطواتك. زد دنواً مني »

فأجبت على ثنائه على باستغفار الله من ذنوبي وبطلب رحمته فأطال نظره إلي وسادت فترة صمت عميق ثم قال : أصحيح أنك جئت إلى هذا المكان لا جئاً خشية أن يحل بك العقاب ؟ إنني وأصحابي قد ودعنا الدنيا وودعتنا فما نسألك عن ذلك فضولاً، ولكنني أردت أن أعرض عليك خدمتي إن كنت في حاجة إليها لأن رسول الله قال حديثاً شريفاً أوصى فيه المبصر بأن يمد مساعدته إلى الأعمى وأوصى الغني بأن يساعد الفقير »

فتشجعت وقلت قصتي بعد أن حورت فيها حتى حسبني السامعون شهيداً من الشهداء وقال أبو القاسم : « متى كان الأمر كذلك فأنى بإذن الله سأكون الوسيلة التي ترتفع بها مظلمتك وسيزور الشاه هذا القبر قبل نهاية هذا الشهر وهو لا يرد لي كلمة فسأطلب إليه أن يعفو عنك ويرد العدل معك إلى نصابه »

قلت : « إن تراب قدميك لكحل لعيني وإنني لخطئ لا أستحق هذه الرعاية من مقامك المقدس . ولكن الذي تفعله من أجلي يتفق مع رفعتك لا مع اتضاعي ومع طهارتك لا مع خطيئاتي »

ويظهر أن أبا القاسم طرب من هذا المدح الذي كلنه جزافاً فقال : « كلماتك وقصتك تدلان على أنك واحد منا ياحاجي بابا . والأتقياء يعرف بعضهم بعضاً كما يتعارف طائفة من الكفار يطلقون على أنفسهم اسم « الماسونية »

هنا صاح الطلبة إعجاباً بعلم الزعيم : « الله أكبر لا إله إلا الله » واستمر الزعيم يخاطبني فقال : « من هذا الدرويش الذي معك ؟ لقد سمعت أنه يقول عنك وعن نفسه إنكما جسمان لهما روح واحدة » فلم أعرف بماذا أجيب وترددت بين

الاعتراف بصداقته وبين إنكارها لأنى لم أتبين شعورهم نحوه . ثم قلت بعد تفكير قليل : « إنه رجل فقير وقد سمحت له بالاقامة معى وهو أدى لى خدمة يسيرة فلم أنسها له »

قال أحد الطلبة الجالسين بجنبي : « لا تنس نفسك فان هؤلاء الدراويش فيهم اللص والوغد ومرتكب كل جريمة »

فقال أبو القاسم وقد وضع يديه على خاصرتيه ، وتلك علامة يعرفها تلاميذه فيه إذا أراد أن يتكلم : « نعم إن هؤلاء الدراويش سواء كانوا من أتباع نور على الشاهى أو من الذهبيين أو من النقشبنديين فانهم جميعاً من المنافقين الذين لا يستحقون غير الموت ، وأكثرهم يصلى بغير وضوء رياء للناس ويتظاهر بالصيام فى رمضان وهو مفطر . وفيهم من يجاهر بأنه ما دامت العبرة بالقلوب فلا داعى للأمور التعبدية ويكفى المرء إيمانه ، وفيهم من يؤمن بالقرآن ولكنه يكفر بالأحاديث ولا يتبع ما أمر به النبى . وفيهم من يصيح بلفظة الجلالة حتى يخرج الزبد من شدقيه أو يصيح بصوت منكر ويعد ذلك من الدين . ومنهم من ينزع عنه الثياب ويمشى عارياً حافياً ويزعم أن ذلك تعبد لله مع أن النبى والصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك . وأقبح جماعة فيهم الصوفية فانهم أبعد الناس عن رسول الله وإنما بعثه الله إنساناً ليقتدي به الناس فلعنة الله عليهم » فقال تلاميذه : « آمين »

واستمر يقول : لعنة الله على الشيخ العطار وعلى جلال الدين الرومى . فقال تلاميذه : آمين

ونظر إلىّ تلاميذه ليروا تأثير هذا القول فى نفسى وقد كنت أكثر حذراً منهم فلم يروا على وجهى علامة للاشمئزاز أو الدهشة ولا للسرور أيضاً لأنه لو بدا ذلك لدل على أننى كنت أجهل ما سمعته . وأخذ الشيخ يلعن الصوفية متحمساً حتى خلت أنه لا يتردد فى قتل أحدهم لو كان حاضراً فى هذا المجلس

ولما انتهت خطبة الشيخ استأذنته وتركت مجلسه عائداً إلى خلوتى . ولما قابلت صاحبى الدرويش بعد ذلك أعدت عليه ما سمعته خصوصاً عن الدراويش وقلت له إن الشيخ لا يبعد أن يرجمه

فقال : « إنه وتلاميذه أولى بالرجم لأنهم سفاكو دماء وليس بهمنى شئ من الخلاف بين السنية والصوفية وأهل الشيعة مادمت أقيم الصلوات الخمس ؛ ومع ذلك فانى سأترك لهم مدينتهم العامرة بالرياء المجردة من كل شئ سواء وان أعود إليها طول الحياة »

وإنى لأعترف بأنى لم آسف لما أخبرني به الدرويش من عزمه على ترك المدينة ووددت أن أقدم فأضع عصاه فى يده وجرابه فوق ظهره وأشيعه إلى الباب مودعاً

ولم يطل عهد هذه الأمنية فانه فعل ذلك من تلقاء نفسه فى اليوم التالى تاركا لى الخلوة . وقلت فى نفسى ساعة ذهب : « اذهب لا أرجعك الله من وغد طروب ، أنت فى بؤسك أوفر حظاً من الأغنياء مادمت قانعاً بالمسير إلى حيث تحملك قدماك كالدين أراهم أرقاء لألف مطلب يتبعون أتباعهم حرصاً على الجاه »

الفصل السابع والأربعون

الدرويش يسرق حاجى بابا

لم يكن يشغل ذهنى فى ذلك الوقت غير الوعد الذى وعدنى به أبو القاسم بأن يستصدر أمر العفو عنى من الشاه . وقلت فى نفسى ما دمت أرجو أن يدافع عنى فلا بد من إرسال هدية إليه حتى يذكرنى

لأن الابن لا يكاد يذكر أباه فى هذه البلاد حتى يرسل إليه هدية

وكنت حريصاً على المال القليل الذى جئت به إلى هذا المكان فدفنته بركن قريب من الباب حتى أصير فى حاجة إليه فلما ذكرت الهدية ذكرت المال فقمت إلى ذلك الركن لأتفقده . ولا يسأل القارئ عن مقدار دهشتى وجزعى وغضبى لما وجدت المال مفقوداً كله . وكانت اللعنات على رأس الدرويش الذى كان معى فى هذه الخلوة لأنه لا يمكن أن تصل إلى هذا المال يد غير يده . ودعوت الله بأن تصير حياته مرة مريرة حزنى لأنى ما كنت أطمع فى شىء أحب إلى من فك أسرى . ولكن ذلك أصبح عديم الجدوى بغير المال . وماذا يمكننى أن أفعل إن ردت إلىّ حريتى وليس معى قوت يومى سوى أن أصير شحاذاً ؟ واشتد جزعى من الموت جوعاً فذلك من شر ضروب الموت

ولما كان اليأس بطبيعته خير علاج للحزن فقد أنسانى يأسى من ضياع حزنى على موت زينب، ثم أنسانى حزنى من الاضطرار إلى لزوم هذا السجن الاختيارى ونسيت فى النهاية حزنى على خسارة المال . وبلغت بى شدة اليأس فى النهاية حداً احتقرت معه الحياة حتى أنه لو وصل إلى يدى سم فى هذا الحين لما تأخرت عن تناوله

وفى ذلك الوقت زارنى الطالب الذى كان قد حذرنى من الدرويش فشكوت إليه أسرى ووجدت لشكوى فرجاً من بث هذه الشكوى إليه فقال لي : « لا تحزن يا أخى فأنت تعرف أن الله يبتلى الصالحين من عباده ليتبين الصابر من الجزوع فلماذا تترك الجزع يتمكن منك ؟ إن مالك قد ذهب ولكن نفسك لم تزل باقية فاحمد الله لأن الحياة بعد كل شىء ليست بالنعمة الرخيصة »

قلت فى نفسى : ما هذه التعزية الباردة ؟ إننى أعلم أن الحياة ليست بالنعمة الرخيصة ولكن هل ترد هذه المعرفة مالى الذي سلبه الدرويش ؟

وطلبت إلى هذا الصاحب أن يبلغ أسرى إلى أبى القاسم ويعتذر إليه عن تأخرى فى إرسال هدية إليه ، لأن ذلك لم يكن فى وسعى ففارقنى واعداً إياى بأن ينقل إليه ما سمعه منى

وفى نفس ذلك اليوم علمت أن الشاه وصل إلى مدينة « قم » وفرش الدفن بأفخر السجاجيد بعد أن كنس وغسلت أرضه بالماء ، وكنت فى ذلك اليوم على أشد حالات القلق لأن الساعة التى يتقرر فيها مستقبلى قد دنت ، ولأن أمد غيبتى عن طهران قد طال وأصبحت حياتى فى هذا المكان مملولة ؛ وكنت أجهل مقدار ما يشعر به الشاه نحوى من البغض؛ وكنت فى ساعة أظن أن الشاه لن يكتفى بشىء أقل من قطع رأسى . وكنت فى حين آخر أندفع فى سبيل الغرور فأرى أن الشاه لا يستطيع أن يأمر بقتلى لأن لى سنداً قوياً من ميرزا أبى القاسم

ولما دخل الشاه هذا المدفن أظهرت نفسى لحاشيته وسلمت عليهم فردوا سلامى فاطمأن قلبى لذلك كل الاطمئنان . وأخبرنى أصحابى بكل ما حدث بالقصر بعد غيابى عنه . وعلى الرغم من أنى كنت آليت على نفسى أن أتزهد وألا أعبأ بشىء فى الحياة فقد كنت أجد دوافع الرغبة قوية فى نفسي لسماع هذه الأخبار

وأخبرونى أن رئيس الجلادين عاد بعد المواقع التى دارت مع الروس وأحضر معه رأس رجل

ورأس امرأة فقبل الشاه منه هذه الهدية ورضى عنه واستتابه عن شرب الخمر

وأخبروني أن أمر حبي لزينب قد اشتهر وصار حديثاً للناس، وأن سيدي القديم ميرزا أحمد وجد حفوة من الشاه فاستمر يرسل إليه الهدايا لعله يجد لديه عطفاً، وأن غضب الشاه لفقدان الجارية الكردية قد قل كثيراً لأن رئيس الجلادين أهدى إليه جارية أخرى وأنه افتتن بها . ووصفها بأنها أجمل جارية رآها من عهد « طاووس » التي كانت تضرب بجمالها الأمثال .

وكان الشاه مقيما في خيامه خارج المدينة. ولست أريد وصف استقباله لأنه لم يراع فيه الأبهة التي تراعى في غير هذا المقام . أما والغرض من هـذا السفر هو زيارة قبر فاطمة الزهراء فقد ظهر الشاه بمظهر التقي الورع الزاهد في مظاهر الحياة . وكانت سياسته تقضي على الدوام بمسالمة رجال الدين لأنه لم يكن بجهل قوة نفوذهم على أذهان الشعب، ولم يكن من الغرور بحيث يتصور أن قوة جنوده تستطيع التغلب على الشعب إن ثار

وكان أول شيء فعله عند ماوصل إلى (قم) أن ذهب على قدميه إلى منزل ميرزا أبي القاسم فزاره فيه ومشى كذلك في طرقات المدينة وأرسل نذوراً كثيرة إلى قبر فاطمة الزهراء

وكان الشاه يوم وصوله إلى المدفن مرتدياً ثياباً سوداء وحوله رجال الدين في مثل هذه الثياب . وكان مجرداً من كل حلية اعتاد أن يتحلى بها من قبل حتى خنجره

وكان ميرزا أبو القاسم يمشي وراءه بخطوة أو خطوتين . وكان يتكلم والشاه يصغي إليـه . ولما مر من أمامي سجدت وقلت : « أنا في حماية ملك الملوك سيد العـالم . أنا أطلب الرحمة باسم فاطمة الزهراء » .

فنظر الشاه إلى أبي القاسم وقال : « من هذا ؟

فقال أبو القاسم : « هو لاجيء إلى قبر فاطمة وهو ينتظر أن يعفى عنه وفقاً للعادة التي جرت عليها هذه البلاد مع اللاجئين إلى القبور المقدسة . وهو ونحن جميعاً فداك ياجـلالة الشاه ومهما أمرت فأمرك نافذ »

قال لي الشاه : « من أنت وماذا فعلت حتى لجأت إلى هذا المكان ؟ »

فقلت : « جعلني الله فداك . أنا كنت مساعداً لرئيس الجلادين واسمي حاجي بابا وقد جعلني أعدائي مجرماً في نظر مولاي الشاه . ولكنني في الحقيقة بريء » ...

فنظر إلى الشاه نظرة طويلة ثم أطرق لحظة وقال : « إذن فأنت حاجي بابا ! سواء كنت أنت المسئول أو رئيس أطبائي فان النتيجة واحدة وهي أن كرامة الشاه قد استهين بها »

ثم نظر إلى أبي القاسم وقال : « بماذا تشير في أمر هذا ؟ إن الشاه فقد جارية من جواريه ولها دية يجب أن تؤدى عندنا حتى للروس واليهود فكيف تضيع دية جاريتي بين الطبيب وبين مساعد الجلاد »

قال أبو القاسم : « حكم الشرع في ذلك أن تدفع الدية إلا إذا نزل عنها ولي الدم وأنت يا مولاي ولي الدم فلك أن تعفو . وأجدر بك وأنت في مقام الملك أن تقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم فتعفو والعفو أفضل »

فقال الشاه : « فليكن كما أشرت » ثم التفت إلي وقال : « لقد عفوت عنك ولكن لا ترني وجهك بعد الآن . اذهب من هنا »

« يتبع » عبد اللطيف الشماع

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة لشارع المبدرلي — عابدين ﴾